ملاحظة فی التقلید الحضاری

پدیدآورنده (ها) : عمادالدین خلیل

فلسفه و کلام :: نشریه الوعی الاسلامی :: السنة الثامنة، ذی القعدة ۱۳۹۲ - العدد ۹۵

صفحات : از ۷۷ تا ۸۲

آدرس ثابت : https://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/768447

تاریخ دانلود : ۱۴۰۲/۰۲/۱۳

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسـلامی (نور) جهت ارائـهٔ مجلات عرضه شـده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشـد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسـلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صـفحه قوانین و مقررات اسـتفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

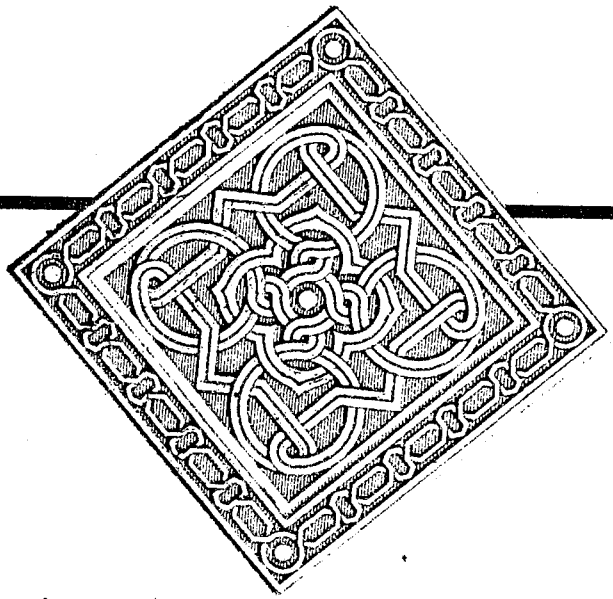

ملاحظة في التقليد الحضاري

د. عماد الدين خليل

يبدو واضحا ان ابناء الحضارة المهزومة يتبعون في نشاطهم الثقافي والعلمي تقليدا غير ذلك الذي يتبعه ابناء الحضارة الاصيلة المبدعة .. تقليدا ، لا يعود في جذوره الى المعطيات التجريبية والثقافية فحسب ، بل الى التجارب النفسية والاجتماعية والى مقدار الثقة والاعتزاز أو الشك ومركب النقص الذي يتميز به ابناء حضارة من الحضارات . وتبدو (نظرية) دارون في (النشوء والارتقاء) خير مثال نضربه في هذا المجال . فبينما نجد ابناء الغرب من انصار وتلامذة دارون انفسهم يسعون للحصول على المزيد من اليقين العلمي ، والمزيد من (التطوير) و (الملاءمة) بين النظرية وبين الحقائق الجديدة التي تتمخض باستمرار .. ويسرى عنه الكثيرون ، وهم معتزون واثقون بوجهات نظرهم المخالفة ـ بشكل من الاشكال ـ للاصول الاولى .. نجد ابناء الشرق يغمضون أعينهم المصابة بالرمد إزاء البريق الوهاج الذي انبثق أول مرة عن نظرية دارون رغم اعتراف صاحبها بخطورة فجواتها ، وظنيتها .. ويقولون كالدراويش ، الذين يهتزون حمدا وتسبيحا عند كل عبارة ـ ان ما قاله (الاستاذ) هو الحق المطلق ، واننا يجب أن نطوّع كل افكارنا وثقافتنا وتجاربنا ومعطياتنا

www.noormags.ir

الثقافية وفق تلك النظرية .. وحتى (تفسيرنا) للقرآن الكريم يجب أن (نوجهه) في الطريق التي تلتقي في النهـــاية بما طرحه دارون !!

صحيح إنه لا توجد لدى الشرقيين الوسائل والظروف والقدرات التجريبية الكافية لاختبار صحة أو خطأ نظرية ما من نظريات (العلم) الغربي . وبالتالـــي فإننا لن نطلب منهم أبدا التصدي لفحصها ومعارضتها أو تأييدها (علميا) ، لان جوابهم حينذاك معروف . ولكننا نريد فقط أن ننبههم الى ضرورة أن يكونوا أكثر (موضوعية) واخلاصا للنظرية ذاتها عن طريق ملاحظـــة وتتبـــع معطيات الغربيين أنفسهم — بما فيهم تلامذة ورفاق دارون — بصدد النظرية . وحينذاك سيعرفون أن ما كل نظرية تطرح هناك تغدو قانونا معمولا به ، أو قضية مسلمة لا تقبل مناقشة ولا جدالا . وانها لا بد وان تجتاز مئات الامتحانات والاختبارات والفحوص . ويسقط عنها عشرات التخمينات والاستنتاجات (الظنية) كي يؤخذ بها امرا مسلما .. وربما ادى ذلك كله بالنظرية الى أن تتجـــه وفق مسارات معاكسة تماما للمنطلقات الاولى !! نريد منهم — فقط — الا يكونوا — كما يقول المثل — ملكيين أكثر من الملك !!

إن الفرق الاساسي بين ابناء حضارة حية متطورة مبدعة وبين اناس لا يملكون حضارة ، أو يحيون تقاليد حضارة في طريقها الى السقوط ، هو ان هؤلاء الاخيرين يأخذون بمبدأ التسليم المطلق بكل ما يطرحه العلم او الثقافة ، دون أن يحاولوا فحص وتجريب مـــدى صحـــة او خطأ هذه الطروح . اما الاولون فانهم لا يكفون ابدا عن الفحص والتساؤل والتجـــريب لأن جديتهم و (موضوعيتهم) تعلمهم حقيقة ان العلم لن يقف يوما عند عتبة سلم إلا ليتجاوزها الى عتبة اخرى ، وان معطيات العلم كثيرا ما ينقض بعضها بعضا . وينسخ بعضها بعضا . ومن ثم فان (الركود) عند درجة في السلم تعني ان (المحرك) الأساسي للصعود قد توقف ولن يكون بعد ذلك تطور أو تقدم بمفهومهما الصحيح العميـــق .. وهي ظاهرة سالبة ما مارستها حضارة من الحضارات الا وكان ذلك يعني انها فـــي طريقها الى نهايتها المحتمة ..

في مسرحية برنرد شو (اكثر صدقا من ان يكون صادقـــا) يقول احد الابطال : « اجل يا سيدي ، كون إسحق نيوتن .. قد تهاوى .. أمـــام نقـــد آينشتاين ، وقد كان كون نيوتن دعامة التصميم الذهني .. وكان في الوسع حساب كل شيء .. وكان كل شيء يحدث لانه يجب أن يحدث .. والآن ، الآن ماذا يبقى ؟ كل شيء هو وهم .. العالم الذي كان حسابه ممكنا صار صعبا على الحاسبين » . وفي بحث (العقل في منتهى حدود الاحتمال) لـــ (هـ. ج. ولز) ترد هذه العبارات « لقد جدّت على الحياة غرابة مفزعة . ان الحـــوادث التي حدثت حتى الآن تتميز بنوع من المعقولية والمنطقية ، تماما كما يضبط قانـــون الجاذبية الأجرام السماوية . اما الآن فيلوح ان ذلك التسلسل قد اختفى » !! (١)

ونحن هنا لن نطيل على القارىء بعرض مواقف الغربيين ، فلاسفة وعلماء ، إزاء الدارونية ، ولكننا نمر ببعضها مسرعين ، من خلال كتاب (سقوط الحضارة) حيث التحليل الذكي لهذه المواقف .

يقول كولن ولسن ، مؤلف الكتاب المذكور « ان ما فعله توينبي هو انه ادلى بحقيقة رئيسية ضد المادية .اذ لا يعتمد الافراد فقـــط على الطاقـــة الابداعية

www.noormags.ir

المطورة . وانما تعتمد الحضارات ايضا على تلك الطاقة . وهذا مضاد للماركسية تماما ، لان الماركسية تقول : ان الحضارات تتطور وفقا للضغوط الاقتصادية ، وليست هنالك ارادة حرة . اما توينبى فانه يقول : ان الحضارات تزدهر او تتدهور وفقا للطاقة الاخلاقية التى تتميز بها (الاقلية المبدعة) . ولهذا فان عبارة (الطاقة الاخلاقية) تكون عديمة المعنى اذا لم توجد هنالك ارادة حرة .

« ويجدر بنا ان نلاحظ ان ثورة توينبى ضد المادية تتبع نفس الخطوط التى تتبعها ثورة لامارك ضد دارون . ولقد كان تطور دارون ماديا فقط . فاذا كانت الزرافات موجودة اليوم برقابها الطويلة فذلك لان الزرافات التى كانت قصيرة الرقاب انقرضت لانها لم تكن تستطيع ان تبلغ الاشجار العالية . فى حين ان الزرافات طويلة الرقاب تكاثرت وصارت تنتج زرافات اخرى برقاب اطول .

« ويسمى دارون هذا : (بقاء الاصلح) او (الاصطفاء العرضى) ، وهو يعنى بذلك ان تعيين نوع الزرافات التى تعتبر اكثر صلاحا كان امرا عرضيا . اما لامارك فقد قال : ان للزرافات رقابا طويلة لانها كانت تريد ان تكون لها تلك الرقاب (!!) وانه حين قل الطعام على الاغصان المنخفضة من الاشجار ، بدات الزرافات تحاول ان تبلغ الاغصان العالية وبذلك تكون قد (ارادت) ان تكون لها تلك الرقاب الطويلة .

« ويتضح لاى عاقل (!!) ان فكرة لامارك اسمح من فكرة دارون ، لان الانسان يستطيع ان يقوى عضلاته ، او اية قابلية اخرى . اذا كان بقاؤه يعتمد على ذلك . ان الظروف الصعبة لا تقتل الانسان — الامر الذى اوضحه دارون حين قال ان ذلك هو ما حدث للزرافات قصيرة الرقاب — وانما تمثل تلك الظروف تحديا يستجيب له المرء . وهذا هو التطور اللامارکى » (٢) .

اما برنارد شو فانه يقول فى مقدمة مسرحيته (العودة الى ميثوشالح) . . « ان دارون اراد ان يجعل الحياة مجرد ميكانيكية حياتية . وان لامارك كان قد جاء بنظرية اقوى عن التطور قبل دارون . وقال لامارك ان الاجناس تتطور لانها تريد ان تتطور ، اما دارون فانه يقول انها تتطور اتوماتيكيا نظرا لتغيير ظروفها » . . ويقول فى نفس المقدمة : « . . . لم يكن الناس قادرين على ان يفهموا . . لماذا كنت اخشى الدارونية الجديدة (٣) ، واعتبرها حماقة مفزعة ، واهاجم دعاتها بعنف وحدة » . ثم يتحدث عن النتائج المفزعة التى تمخضت عنها المادية الدارونية فى السياسة — وهو هنا يشير الى حرب ١٩١٤ — ويقول مثل توينبى ، ان الحضارات تسقط فى اللحظة التى تكون فيها قوة الانسان اشد من قوة الدين « اى امل هناك اذن فى ان تسير الانسانية الى الافضل ؟ اذا كان الدارونيون الجدد والميكانيكيون لا يعتقدون ان هنالك شيئا من الامل . لان التطور لا يحدث الا بصورة عرضية لا تدبير فيها ولا حكمة . . ؟

بيد ان هذه العقيدة الشقية لا تثبط عزائم اولئك الذين يؤمنون بأن الدافع الذى ينجم عن التطور هو خلاق . وقد لاحظوا حقيقة شديدة البساطة ، وهى ان الارادة التى تسر على شىء تفعله فى النهاية . وهى تستطيع فى لحظات معينة من التركيز الذى تبلغه لايمانها بالحاجة اليه ، ان تخلق وتنظم كيانا جديدا ، ولهذا فهؤلاء لا يعتبرون الجنس البشرى لعبة لا ارادة لها » . وقد اشار وايزمان عالم الاحياء البارع الذى هبطت به الدارونية الجديدة الى مستوى الحماقة ، الى ان الموت ليس حالة ابدية فى الحياة وانما هو حادث عرضى يفيد للتجديد الدائم ، ولتجنب ازدحام الارض !! (٤) .

www.noormags.ir

ويوضح برناردشو بعض الامور بوضوح وتاكيد شديدين : كاهمية المساله الدينية المتمثلة فى النظام ، فى الضبط الذاتى : « لما لم يكن فى الدارونية مجال للارادة الحرة ، او ايـة ارادة اخرى ، فان الدارونية الجديدة تعتقد بأنه ليس هنالك ما يدعى الضبط الذاتى . ومع ذلك فان الضبط الذاتى هو الميزة الوحيـدة لقيمة البقاء التى نجد ان اختيار الظروف يجب دائما ان يؤدى اليها فى المـدى البعيد . وقد يتم اختيار صفات غير منضبطـة لتبقى وتتطور لفترات معينة فى ظروف معينة . اذ لما كان النهمون هم الذين يكافحون اشد الكفاح من اجل الطعام والشراب ، فان جهودهم تطور قوتهم وبراعتهم فى فترة قصيرة جدا ، بحيث ان اقصى ما فى وسعهم أن يفعلوه لا يمكنهم من ان يأكلوا اكثر مما يستطيعون . ولكن اى تغيير فى الظروف يأتيهم بمقدار كبير من الطعام يدمرهم . ونحن نرى هذا الامر يحدث دائمـا . اذ نرى فقيرا قـويا صحيح البنية يصبح مليونير بالصدفة التى غالبا ما تحدث فى التنافس التجارى ، وسرعان ما يبدأ بحفر قبره بأسنانه . اما الانسان المنضبط ذاتيا فهو يظل على قيد الحياة فى تغيرات الظروف لانه يعد نفسه لها ، فلا يأكل أكثر من قابليته ولا اقل منها ، وانما يأكل بالقدر الذى ينفعه . فما هو الضبط الذاتى ؟ انه لا شىء سوى الحيوية المتطورة ، المتحكمة فى الشهوات العادية والمنظمة لها ، فاذا اغفلنا وجود هذا المفهوم السامـى ، واذا فشلنا فى فهم البدهية الواضحة من أن النوع هو الذى يميز من يستحق البقاء ، كما تفعل المادية الدارونية الجديدة باسم الاصطفاء الطبيعى ، فان هـذا ليدل على حاجة علماء هذه الفكرة الى فهم موضوعهم نفسه ، كما انه يـدل على عدم ملاحظتهم للقوى التى يتم بموجبها الاصطفاء الطبيعى » !! (٥) .

★ ★ ★

ان توينبى او كولن ولسون او برنارد شو او أيا مـن المفكرين الغربيين الذين تناولوا نظرية داروين بالنقد والتمحيص ، لو كان يعلم — يقينا — ان ما جاء به داروين هو الحق المطلق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ، لكان من السخف ان يتعرض لمناقشة (يقين) كهذا بعبارات تخمينية كهذه (أرى .. يرى .. ضرورة فهم موضوعهم نفسه .. يدل على عدم ملاحظتهم .. هبطت بـه الى مستوى الحماقة .. جاء لامارك بنظرية اقوى .. ويتضح لأى عاقل .. الخ) ، لكنه يعلم — قطعا — ان رفيقـه يبنى الاجزاء الكبرى مـن نظريته على الظن والتخمين والترجيح كذلك !! فهى — من هذه الناحية — اشبه بنظرية فلسـفية يحق لكل باحث فى حقول الفلسفة ان يأخذ منها ما يراه حقا ويدع ما يراه باطلا متهافتا ، ونحن رأيناقديهانفسهم يقعون فى خطأ الظن بأن للزرافة ارادة ذاتية فى تطوير رقبتها من اجل ان تصل الى غذائها المعلق على الغصون العالية !!

ان معطيات دارون لم تقم جميعا على مسلمات علمية منبثقة عن عينات حياتية توفرت لديه فى جميع مراحل بحثه .. بل ان هذه العينات لم تخدمه سوى فى مساحات ضئيلة من مسيرته التجريبية وملاحظاته الاستقرائية ، اما المساحات الاوسع فقد غطاها بالظن والترجيح والتخمين .. ولذا فليس من المستحيل على اولئك المفكرين الواثقين بأنفسهم أن يناقشوا داروين ويحاسبوه على تخميناته وان يأخذوا من نظريته ويدعوا حسبما يملى عليهم تفكيرهم ومتابعتهم العلمية ونتائج الأبحاث والحفريات والكشوف الجديدة التى لا تقف عند حد الا لتتجاوزه الى آفاق أخرى ..

www.noormags.ir

اننا اذا سايرنا وجهة نظر داروين في حدوث طفرات في تطور بعض الانواع فاننا لا بد وان نجد انفسنا امام هذا السؤال : لماذا لا تخطىء هذه (الطفرات) يوما ـ كما او نوعا ـ فتؤدي الى ظهور (نوع) او (انواع)تسبب دمار الحياة على الارض ؟ الا يعني هذا انه ـ حتى على فرض الايمان المطلق بالطفرة ـ فان هناك قوة عاقلة تشرف على توجيهها لصالح الحياة ؟ او على الاقل تمنح الانسان العاقل قدرة وذكاء على التحدي والمجابهة ؟ واذا كانت (الطبيعة) تهيىء لكل مخلوق وسائله الخاصة لحماية نوعه من الانقراض ، فهل هذا يعني انها تملك البصيرة الناقدة التي تمنعها من أن يكون للانسان منشار كمنشار التماسيح ، فضلا عن عقله ؟ الا يمكن أن تقع في الخطأ ـ يوما ـ وتمنحه وسيلة مادية (زائدة) للدفاع عن نفسه ؟ الا يعني هذا أن (الطبيعة)فيتقسيمها المنطقي لوسائل الحماية على المخلوقات ، تفكر وتعقل ؟!

ان الله سبحانه ، وهو القدير الخلاق ، شاء أن تكون الارض ـ وقد هيأها اساسا لتوالد الحياة ونموها وحمايتها ـ مسرحا لعرض قدراته الخلاقة في تشكيلة من المخلوقات البسيطة او المعقدة ، ذات الاشكال والتراكيب المعجزة .. ونحن امام فرضين لا يصطدم اي منهما بأي من الحقائق الدينية عامة والقرآنية على وجه الخصوص ، بل العكس يسايرها ويوضحها .. احدهما خلق مباشر (مستقل) لحشد هائل من المخلوقات المتمايزة ، وهو لن يعجز الله سبحانه وهو الذي خلق الكون في ستة ايام ، واتاح للارض امكانية الحياة فوقها بشكل معجز خارق من بين ملايين السدم والنجوم .

واما الاحتمال الآخر فهو اتاحة المجال للطبيعة والاسباب والسنن أن تعمل عملها ـ على مدى الازمان الطويلة ـ في تطوير الحياة على الارض ، فيما سماه داروين (الانتخاب الطبيعي) ، وذلك بتطوير المخلوقات (الحية) والتدرج بها من شكل الى شكل في مواجهة تحديات البيئة .. وهو امر يحدث ليس فقط على نطاق الحياة وانما على نطاق (التطورات الجيولوجية ، المناخية ، الكونية بصورة عامة حيث الاتساع المستمر كما يؤكد القرآن الكريم) .. الا أن تلك السنن والنواميس التي (تضبط) هذا التطور و (توجهه) لا يمكن بحال أن توجد من العدم لكي تمارس مهمتها العاقلة الذقيقة المعجزة هذه !!

ان قدرة الله سبحانه علىخلقانواع شتى من الموجودات بهذا التنوع ، توحي بأن هناك تدرجا في الخلق من الاشكال البسيطة الى الاشكال العليا ، ونحن لا نستطيع التسليم المطلق بهذه الفكرة ، الا اننا يجب أن نلاحظ بأن الله سبحانه ما دام قد هيأ ارضية للحياة على سطح الارض بمواصفاتها وتركيبها المعروف فلا بد اذن أن يكون هناك قاسم مشترك اعظم في طبيعة التكوين البيولوجي لسائر المخلوقات الامر الذي يمكن أن نلمسه في تكوين (الخلية) .. وهذا القاسم المشترك انما هو الدليل الذي لا ريب فيه على أن وحدة الخلق من وحدة الخالق .. ترى لو أن ظروفا ذات سمات ومواصفات اخرى للحياة قد هيأها الله سبحانه على سطح كوكب آخر ، الا ينتج عن هذا تكوين بيولوجي لمخلوقاته يختلف ـ بشكل من الاشكال ـ عما في الارض لكي يكون ملائما لظروف ذلك الكوكب ؟ .. من الذي يحدث هذه المواءمة الحيوية بين المخلوقات

www.noormags.ir

جميعا وبين الارضية التى تتحرك عليها وتحيا فوقها ؟ من الذى هيأ للأحياء جميعا — على سبيل المثال — قدرة حيوية على امتصاص الاكسجين او الكاربون وتمثله ؟ الا يدفعنا هذا الى تخمين معاكس لفرضية دارون وهو ان تشابه الاوليات الحياتية لفصائل المخلوقات لم يجيء لانها تطورت عن بعضها وانما لانها بخلقها (المستقل) تشترك جميعا بتعامل واحد ازاء ظروف حياتية واحدة تفرض على الكائنات الارضية جميعا ان تأكل وتشرب وتتنفس وتنام ؟!!

و (مندل) ، عالم الحياة المشهور ، الا يقرر ان كل نوع — على الاقل فى الفترات الاخيرة من تاريخ الحياة وهى الفترات التى تخضع للفحص والتجريب وليس للظن والتخمين — يحتفظ بخصائصه ومميزاته الوراثية التى تحمى نفسها وفق قوانين غاية فى الدقة والاعجاز ؟؟ الا يتعارض فى هذا مع نظرية دارون التى تلغى الصفات والميزات ؟ ان فصائل القرود العليا وقفت — فيما يبدو — عند مرحلة من الادراك والقدرة على الابداع والتنفيذ لا يمكن مقارنتها — بأى حال — بمدركات الانسان (وهذا الفرق الاساسى هو ما اكد عليه هكسلى احد رواد نظرية النشوء والارتقاء) .. ولقد اثبت علم النفس انه عن طريق (تجربة الخطأ والصواب) يمكن تعليم ، حتى القطط والكلاب ، على العديد من الحركات والمهارات التى تمارسها فصائل القرود .

★ ★ ★

لقد عجز دارون تماما عن تحديد مصدر الحياة الأولى على الأرض .. وقال — يوما — متحدثا عن مشاهداته لتركيب العين المعجز « كلما تذكرت مشاهدتى لتركيب العين هزتنى قشعريرة .. انا لا اعتقد انه ليس هناك اله » !! .. واعلن هكسلى بعده ، عن ضرورة اجراء تعديلات جوهرية على صلب النظرية .. واما الفلاسفة والمفكرون الأوروبيون أمثال توينبى وبرناردشو فقد ابدوا تشككهم ازاء الكثير من تخمينات الداروينية ، خصوصا تلك التى تنفى حرية الانسان وارادته الذاتية فى تطوير امكانياته على نطاق الحياة الخاصة والحضارات ..

أما نحن فهل سنظل أسرى حضارتنا الضائعة ، وقيمنا المشوهة ، ونغدو ملكيين اكثر من الملك ؟!

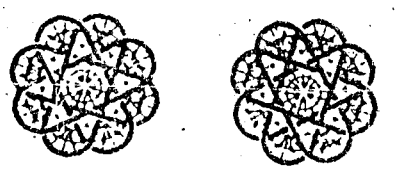

---

(١) كولن ولسن : سقوط الحضارة ، الطبعة الثانية ، ص ٢٥٠ (ترجمة أنيس زكى) .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٠ و ١٥١ .

(٣) نميزا لها عن نظرية لامارك التى سبقتها .

(٤) عن سقوط الحضارة ص ٢٣٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٤١ و ٢٤٢ .

www.noormags.ir